الاتهام:

لطالما تلازمت مجموعة من الصفات الكهانة والشعر والسحر إذ تبنتها قريش أدوات للطعن بصدق دعوة الرسول محمد صل الله عليه وآله وصحبه ولم يكن اختيار قريش لها إلا بعد الشعور بالهزيمة أمام نص تحيروا في وصفه، فبعد التجوال في التهم لإختيار المناسب منها ولصقه بحامل الرسالة السماوية لم تجد قريشٌ ما يُمكن أن يقدح بسيرته بعد استعراضها، فلا يُمكن أن يكون صاحب السيرة الصادقة كاذباً بلحظة، ومَن عرفت عنه رجاحة العقل ليس من السهل إتهامه بالجنون، وقد أكد هذا المنحى الوليد بن المغيرة حين طالبه قومه بوصفٍ يقدح فيما سَمع فلم يتوصل إلا إلى أن ما سمعه أشبه بإلقاء تعاويذ سحرية في آذان الآخرين [1]، والسؤال المُلح هنا لماذا الشعر والسحر ؟ القوة الكلامية هي من أخطر الأسلحة التي يُمكن أن يوظفها الإنسان، فهي ليست أداه للتواصل وإن كان من مهامها ذلك، ولكنها أداة لبناء الذات، ومثلما هي كذلك فبإمكانها هدمها أيضاً، بل أن التواصلَ الذي تنهض به هو جزءٌ من ذلك البناء أو الهدم.

فاللغة مادة أولية لكلٍّ من الكهانة والشعر والسحر، وكل منهما يلتقي في استعماله لها بطريقة مخصوصة، فالشعر يرتب اللغة من حيث اللفظ مع غيره، ليكون هذا الترتيب على شكل وحدات لغوية، ويدفع بتلك الوحدات لأن تتكرر مُحدثة نوعاً من الموسيقى غير السائبة إذ يُمسك الشاعر بنهاياتها في إطار إيقاعي، ثم يُمكن لهذا أن يتكرر داخل مجموعات كلامية، وهذا التكرار له حسابات أخرى، يُمارس الشاعر عن طريقه سطوته على السامع، تبدأ بالجذب ثم التأثير ثم التصديق ثم الانقياد والتبعية، وما الذي سيرتجيه السحر أكثر من ذلك، فمنذ بداية التكهن أراد الكهنة أن يكون لهم تميزٌ في كل شيء ينبع من المكانة الدينية وسلطتها، فكان لا بُد أن تتميز لغتها هي الأخرى، لغة تُفهم مُتلقيها بأنها مخصوصة من حيث المكان والمكانة وهي إن دلالتها ذات ارتباطات فوقية وبالتالي هي لغة نابعة من هذا الارتباط، فوجب احترامها وتنفيذ ما تحمل من رسالة .

وحين مارست العرب السَجع في جاهليتها إنما ذهبت للتأثير عن طريق الإفراط بالتلاحق اللغوي لإيهام السامع أن ثمة قوى أخرى هي التي تمتلك هذه اللغة الخاصة التي لديها القدرة على تكرار ذات الصفات اللغوية / صوت وهذه المسألة تحتاج إلى مقدرة فوق الطبيعية لا تتأتَ لبشر، ولذا كانوا يُطلقونها حتى وإن كان بعضُها غير مفهوم لغرض بيان التمكن والاستمرارية، ولإيهام السامع بأنها لغة أخرى تمثل آخراً لا ينتمي لنا.

وكان اتهامها للرسول محمد صل الله عليه وآله وصحبه بالكاهنة نابعاً من أنها رأت في القرآن الكريم ما يشبه السجع الذي عرفته، وهو تكرار للفواصل[1] فيه، إما الأمر الآخر الارتباط الغيبي، فإن لفظة التكهن تعني التنبأ بالأمر قبل حدوث[1]، وعلى هذين الأمرين بَنَتْ قريشٌ رؤيتها في الإتهام، إذ كان في القرآن الكريم ثمة مقاطع صوتي تتكرر في نهاية الآيات، وإن ما ينطق به الكهنة يقصدون من وراءه التعمية على

الناس لإبراز سلطتهم وتدعيمها، وإنهم يرتبطون بقوى يتحدثون نيابة عنها هي التي تنطقهم بهذا النسق الكلامي. والحقيقة أنها في القرآن الكريم لم تكن دائماً تتكرر فيه بصورة مُتلاحقة أي أننا نجد مسافة في كثير من الأحيان بين القول والقول، كما أن هناك نوع من التنوع أي أنها تتغير ولا تسير على مقطع صوتي واحد، ثم أن الغرض من ذلك خدمة المعنى لكي يفهم السامع ويؤثر فيه، وليس الإيقاع الصوتي المُتحقق من السَجع الذي يجعل السامع تبعاً للقائل لتمرير أنساق يرتجيها.

وبقيت قريش تدور في إلصاق الإتهامات التي تشكل الصياغات اللغوية المظهر الأساس فيها، فهي وعت أن أداة الدفاع لا بُد أن تكون من جنس أداة الهجوم، حين رأت أن ما جاء به القرآن الكريم يهدد ما تؤمن به، وما تستمد منها شرعيتها وسلطتها، ولأنها أمة ذات مقدرة لغوية خاصة استطاعت عن طريقها أن تثبت ذاتها وتدعم وجودها ، جاء القرآن الكريم بمقدرة أعلى، وهنا حصل التصادم، فكيف؟ ومن أين؟ وحين أبوا الاقتناع وعجزوا عن التفسير ما كان منهم إلا محاولة توجيه ضربة إلى قائل الكلام / الرسول صل الله عليه وآله وصحبه من أجل الوصول التشكيك في المقول / القران.

ومع عرض الوليد لسيرة الرسول محمد صل الله عليه وآله وصحبه في الماضي لم يجدوا ما يمكن أن يقدح بها، حتى أنه إستملهم للتفكير كي يرتب لهم ما يتهمونه به، وهذا يدلل على نصاعة سيرته وإن ليس ثمة ما يُعيبها طيلة أربعين عاماً، ودلالة على جدة ما جاء به على مسامعهم، ولم يبقَ أمامهم إلا الإتهام بوجود قوى غيبية تقف خلف ما يدعي، وقد وجدت ضالتها في الشعر والسحر، معتمدة بذلك على البعد اللغوي وتشابه الأدوات والنتيجة المُتحققة، فحين يشعر الشاعر بما لا يشعر به غيره[1]، وينتظم هذا الشعور المتفرد بطريقة لا يُمكن أن يشترك فيها الكل لتمنحه خصوصيته النابعة ليس فقط بالاعتماد على الرصف اللغوي وإنما ببعض الحالات التي تتمثل بـ العزلة وشيء من التأمل بما عرف عن الشعراء ، ولأن هذا يعني الإنفصال حضورياً عن الآخرين والتوحد مع الذات ورفع القيود عن الذهن وإنعتاقه في عوالم يختارها، وقد ينطبق هذا الكلام على السحر إذ يميل مُمارسو السحر إلى نوع من العزلة أيضاً وإتخاذ أمكان نائية أو أطراف القرى والمدن كم أنهم يستعملون لغة تنماز بعدم الفهم لمُتلقيها أو لنقل حين يبدأ بإلقائها على الأشياء التي يتخذها وسيلة في سحره إذ يقرأ عليها كلمات تسمى التعويذة التي هي في الأصل صياغات لغوية ، كي يقنع الآخر أن السر ليس في الشيء، وإنما بما أُلقي عليه، وهي اللغة وبالتالي كأنه منحها الحياة عن طريقها، لتكون فعالة وتؤدي غرضها كما أن العزلة المكانية كانت تمثل للشاعر و الساحر أحدى أدوات الإنجاز، من حيث الإنقطاع عن الآخرين ، إذ يرفع هذا الإنقطاع من مكانة صاحب المُمارسة ، ليبقى السؤال المُلح في عقل المُتلقي مَن وراء ذلك فهو يسمع القول ولكنه يجهل كيف تم صياغته، وهذا الجهل وضع فيه ، إذ إنه الأداة الأكثر تأثيراً .

إذاً ما الذي يفعله الشعر والسحر غير كلمات تُلقى على للتأثير في السامع وتوجيهه إلى ما تريد، هكذا أراد المشركون طرح المسألة، فالرسول صلى الله عليه وآله وصحبه كان يعتزل قريش كثيراً متأملاً ، متفكراً ثم جاء بأفكار جديدة مُصاغة بشكل لغوي بارع أبهرت أصحاب اللغة أنفسهم حتى تحيروا أمامها مُطالباً إياهم

باتباعها والتخلي عن قديمهم، فمن أين جاء؟ هكذا أرادوا أن يقولوا للناس إنه يُمارس ما يُمارسه الشعراء أو السحرة والدليل القواسم المشتركة العزلة إذ إنها قاسم مشترك مشابهة لعزلة الكهان والسحرة وكل اولئك الذين يدعون الارتباط مع السماء بصلة لما يتطلب الادعاء أي كان أن تبقى حيثياته مجهولة على الآخرين ،كما أن اختيار مكان العزلة في مستوى مرتفع عن الارض/ جبل هو ذات الاختيار الذي يقوم به الكهنة ويؤسسون معابدهم هناك، وتأتي مسألة أخرى وهي الاستعمال المخصوص للغة والأ هداف المُتحققة، التي عبرها عنها صاحب الإتهام الأول *بالتفريق بين أقوى الروابط إ لا وهي رابطة الرجل بأهله وهم زوجته وأولاده، وحتى يستطيع هدم تلك الروابط فإنه يحتاج إلى قوة خارجية فاعلة التأثير فكانت هي الكلمات وما تحمل من سحر لأ مة كانت تعني لها الكلمة تأريخ وحضارة وفكر، كانت الحاجات المعنوية تشبع عن طريقها، لذا كان وقعها في النفس بليغاً يصل إلى حد الإنقياد لها. إذ يدخل كل من الشعر والسحر النفق النفسي للإنسان باحثاً عن مساحة لإشتغاله، ويبدو أن النظر إلى ما جاء به القرآن الكريم يلتقي معهما في هذه الجانب، هذا ما أرادوه من وراء وصفهم للرسول صلى الله عليه وآله وصحبه، وركزوا عليهم ولاسيما عند علية القوم الذين خبروا الشعر وعرفوا السحر، لأن التحاقهم بالأفكار الجديدة سيكون مؤثراً، فكان عند قريش سحر يؤثر

ويبدو أن الاتهامات التي وجهت للرسول صل الله عليه وآله وصحبه كان هناك ما تراه قريش يتعلق بشخصه الكريم منها إنه كان يميل في بعض الأحيان للعزلة، وهي على وفق فهمهم تتشابه مع ما يفعله الشعراء على الرغم من اختلاف المكان فوادي عبقر منخفض بين جبلين حسبما يروون وذهاب الشعراء الى هناك يعني العزلة لتلقي شيء ما / الشعر ذاك لاعتقادهم بأن الظلمة والمنخفضات أماكن تواجد الجن ، في حين أن الكهانة وما يتعلق بها من كلمات ذات تأثير سحري على المقابل كانت تحتاج إلى ذات الانعزال لأجل التلقي أيضاً مع اختلاف المكان الذي قد يكون مرتفعا نسبيا عن المستوى الطبيعي للأرض ، وبإستقصاء بسيط يُمكن أن نرى أغلب الأماكن العبادية في تأريخنا كانت تقع فوق الجبال أو على أرض تنماز بإرتفاع نسبي وهذا يمنح المعتزل بُعداً جسدياً وفكرياً وخفاءً على مستوى المُمارسة، ثم أن هذا الارتفاع المكاني يعود بفائدة أخرى على وفق فهم المعتزل ألا وهي الرؤية الأوضح والصلة الأ قرب إذ يبدو أنه يجزم بأن البعد عن الأرض يُمثل إقتراباً من السماء / الصلة، وهذه فكرة تنم عن أنه يعي بشكل جيد أن هناك مجهول لا يعرفه، مجهول سلطته السماء ، فيرى أن علو المكان يمنحه علو المنزلة وإقتراباً من مصدر السلطة . وقد كانت مطالبة فرعون لهامان ببناء صرح إيماناً منه بأن الأسباب / السلطة مصدرها علوي وقد عبر القرآن الكريم: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ"[1]. وكان ثمة تشابه رأته قريش حين كان الرسول صل الله عليه وآله وصحبه تاركاً مجالسها ينعزل بين الحين والآخر على قمة جبل ويدخل غاره وحيداً، ويتكرر هذا الفعل إلى أن جاء بشعره أو سحره كما ادعت قريش.